# التربية والبناء.. والأنموذج الصالح التساوق مع السنة الإلهية.. وقصة نوح عليه السلام وابنه

« ١ »

تدقيق النظر فيما هدت إليه معالم الكتاب العزيز في شأن الذرية والولد: أمر تفتقر إليه العملية التربوية التي يفترض منهجياً ـ على الأقل ـ أن يكون فيما تهدف إليه على هذه الساحة: إنشاء الحوافز الذاتية في النفس وتنمية التطلعات التي تنعكس على عملية البناء؛ ما كان من ذلك على صعيد الإنسان ـ عموماً ـ وما كان على صعيد المجتمع بخاصة.

ولعل من النماذج التي تؤكد ذلك، ما وقفنا عليه المعلم القرآني في مكي الآيات ومدنيِّها من أن سُنَّةَ الله الماضيةَ في الناس، تجعل قيمة الإنسان وعاقبة أمره، مرهونتان بإيمانه وعمله الصالح، وما يقدم لنفسه من الخير وللآخرين، لا بنَسَبِه وما يكون من دعاوى وعناوين.

والتوجيهُ الربانيُّ في أعقاب دعاء إبراهيم بمفرده، ودعائه هو وإسماعيل عليهما السلام ـ كما ذكرت آنفاً ـ يعتبر بحق كلمة الفصل في هذه القضية الكبرى التي كان من ثمراتها فسح المجال لتكافؤ الفرص، وأن يتاح للطاقات أن تعمل عملها، فتنموَ وتتعاظم بالممارسة والإنجاز.

فإبراهيم عليه السلام يقول ـ كما رأينا في سورة إبراهيم ـ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ وفي سورة البقرة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤ ]. وفيها أيضاً: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فالأهمية لم تعطَ للنسب والعنوان، ولكن أُعطيتْ للإيمان والعمل الذي يرضى الله عنه..

وهكذا يتسع ميدان التنافس على الخير، ويتقدم من يتقدم بإيمانه الصادق، وترجمة هذا الإيمان إلى عمل صالح وسلوك قويم، ويكون له من وراء ذلك حسن العاقبة وخير المآب.

ويتأخر من يتأخر بجنوحه عن طريق الهدى عقيدةً وعملاً وسلوكاً، ويَحِلُّ عليه من وراء ذلك غضب الله في الآخرة والعذابُ الأليم.

ولقد كان من حكمة ربنا جل شأنه، أن عرض على الجماعة المسلمة في العهد المكي واقعةً عملية تبرز فيها السنة الإلهية التي نشير إليها ـ على أتم وجه وأكمله ـ، ذلكم ما حصل لنوح عليه السلام مع ولده الذي لم يكن من أهل السعادة، مع أنه ولد نبي كريم..

الطوفان يحاصر الناس، وقد تفجرت الأرض عيوناً، والتقى الماء على أمر قد قدر، وخطرٌ يحدق ـ إلا بأهل الإيمان ـ فلا يستجيب هذا الولد لدعوة أبيه أن يركب في السفينة!! فيدركه الغرق، ويتوجه نوح عليه السلام إلى ربه في شأن ابنه فيقول: ﴿ربِّ إنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. فيأتيه الجواب: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. ففي سورة هود وهي إحدى السور المكية تطالعنا آية القصة ـ وهذا بعضها ـ بدءاً من الآية الحادية والأربعين في قول الله جل ثناؤه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فكأنها للواقع دائماً بصرف النظر عن الظروف والملابسات.

ولسوف تحمل إلينا سطور قادمة إن شاء الله ما تشرق به تلك السنة الربانية من نفاذ مهيمن يتجاوز حدود الزمان والمكان والأشخاص، وترى خط الواقع وافراً من ذلك في كل عصر.

وهذه الركيزة في منهج التربية والإعداد، والتي تملي على المجتمع أن يتيح للكفايات والطاقات أن تتحرك على محورها المناسب: جديرة أن تصحب تباشير اليقظة المرتقبة، وتعفّي على ما داخل الصلة بالمنهج الرباني من جهالة وفتور وتخلّف، وذلك مؤذن إن شاء الله بسلامة الخُطا إلى غد مأمول في ظل العزة والتمكين. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

# البناء التربوي.. والمنهج في قصة نوح عليه السلام

«٢»

من عجائب تقدير الله وحكمته في نصرة دينه القويم، الطريق التي اختارها لمن حُمِّلوا أمانة الإسلام وشرف الإيمان به والدعوة إليه.. أنَّ الصراع الدامي الذي كانت تخوضه الفئة القليلة المؤمنة في مكة لم يكن نثاراتٍ من الحوادث التي تقع هنا وهناك. دونما رابط يربط بينها أو فكر يوجه أصحابه ومنطلقات موزونة آخذٍ بعضها برقاب بعضٍ تحدِّد الخُطا، وغاياتٍ نيِّرة تتسق مع تلك المنطلقات.

بل العكسُ هو الصحيح؛ فقد كانت تلك التحركات كلها منضبطة بضوابط الرسالة، في تمايز واضح بين أهل الإسلام الذين يسيرون وفق منهج متكامل رسمته عقيدة التوحيد، وبين سَدَنة الجاهلية التي يحكم الإنسانَ فيها الهوى والتقليد الأعمى؛ ناهيك عن اختلال القيم واضطراب المعايير، نتيجة العدوان على الفطرة والعقل في هذا الإنسان.

وفي الجانب الذي سبق أن ألمحنا إليه من قصة نوح عليه السلام: ما يدل على أن الصراع الدامي الذي تجري الإشارة إليه: كان مصحوباً بتلك المنهجية الرائعة التي تحدِّد للمسلمين القيم والمعايير، وترتفع بهم إلى المستوى الذي لا يُعجزهم معه أن يخوضوا معارك التحويل وإنقاذ البشرية من الضياع المحتوم ـ كما يبدو ـ وأن تمتد أيديهم إلى أن يرفعوا قواعد البناء الحضاري السليم، وفق منهج ظهرت بوادره منذ العهد المكي في عصر الرسالة، حيث المجتمع ما يزال قياده بأيدي من يطوِّفون حول اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، متبعين ما ألفوا عليه آباءهم ولو كان هؤلاء الآباء لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

إن ما حصل لنوح عليه السلام مع ولده النَّسَبي ـ كما أخبر عن ذلك الكتاب العزيز ـ وَضَعَ المسلمين على المنهج الراشد وحدّد لهم القيم التي يجب أن يُحتكم إليها في تقدير قيمة الإنسان والعاقبة التي يؤول إليها، وما يجب أن يوضع في الحسبان عند التربية والإعداد.

فأين المفاخرة بالآباء والأجداد ولو كانوا على غير سبيل الهدى ـ معطلة عن العمل عقولهم، مضروباً عليها بالأسداد قلوبهم ـ، وجعلُ التفاضل بالنسب ولو كان صاحبه من أهل الغواية وشياطين الإنس.. الأمر الذي تثور معه الفرقة، ويضطرب حبل الودّ، ويُحرم المجتمع من إمكانات وطاقات كان من الممكن أن تعمل عملها في إقامة بنية سليمة لذلك المجتمع، لا تشكو في جانب اقتصادي أو اجتماعي أو غيرهما، وتمهد للكيان الذاتي المستقل للأمة.

أين ذلك كلُّه مما قصَّ الله على نبيه ﷺ والمسلمين، من أن ولد نوح عليه السلام لم ينفعه في حومة الطوفان المعتصَم الذي أراد أن يأوي إليه، خلافاً لما دعاه إليه أبوه، فكان من المغرقين.

بل أين ذلك كله مما أعلنه القرآن من أن هذا الولد ليس ـ على الحقيقة ـ من أهل نوح عليه السلام، وإن كان ولَده الصلبي لما أنه عملٌ غيرُ صالح؛ خالف عن الصراط السويّ الذي يدعو أبوه الناس إلى سلوكه كيما يكونوا من الناجين يوم الدين.

وفي شأن النقطة الأولى نعاود ذكرى ما جاء في سورة هود المكية من قول الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ونقـرأ ـ مـرة أخـرى ـ في شـأن النقطة الثـانيـة التي تقـرر بـأسلوب غـاية في الوضوح، يحمل ما يحمل من التوجيه والبيان المعجز: أن ولد نوح الرسولِ المكرم عند الله ـ وقد جنح هذا الولد عن الصراط المستقيم ـ لم ينفعه النسب المجرد إلى أبيه المبلغ عن الله. ذلكم قول الله جلّت حكمته: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

إنه المنهج الذي أريد للفئة المؤمنة التزامه من أول يوم، في شأن القيم التي يحتكم إليها في إعداد الإنسان وتقدمه في المجتمع وتنمية الموارد البشرية.

وأنت واجـد أن القـرون المتطاولة لم تحُلْ في الماضي ولن تحـول اليـوم دون التبصُّر في الحجم الكبير الذي تأخذه هذه القضية على الساحة الإنسانية في حضارة الإسلام.

# البناء التربوي والمنهج في قصة نوح عليه السلام

## «٣»

أن تكون الواقعة التاريخية العملية مع نبي كريم من الأنبياء عليهم السلام، ومع إنسان هو ولده وفلذة كبده: أمر يفسح للقضية المراد تثبيتها من خلال هذه الواقعة، أن تأخذ أبعادها في العقل والقلب والمشاعر.

وأنت واجد أن المسلمين ـ وهم يخوضون معركة الصراع بين التوحيد والوثنية، وما لها من عقابيل جاهلية على صعيد القيم والمعايير ـ كانوا ـ والمجتمع الجاهلي يئن من أذى المفاخرة والمكاثرة بالباطل ـ بأمسِّ الحاجة إلى مثل هذا النموذج الحيِّ، الذي حصل لنوح عليه السلام مع ولده من صلبه، الأمر الذي يزيد وضوح الرؤية ويضاعف القدرة على مواجهة التحديات الجاهلية التي قد تكون من الوالد أو الولد أو غيرهما من القرابة؛ والابتلاء بذلك أمر لا يحتمله وينجو من فتنته إلا المؤمنون الصادقون.

إن نوحاً عليه السلام دعا ربه متسائلاً عن حال ولده الذي غرق.. لقد غرق مع أن الله، وعده بنجاة أهله ـ كما نصَّت الآيات ـ ووعدُ الله الحقُّ الذي لا يُخلف ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فبيَّنَ الله لنوح ـ وهو الأب الشفيق ـ أن ولده هذا ليس من أهله الذين وعده الله إنجاءهم، لأن الله وعد نوحاً بنجاة من آمن من هؤلاء الأهل؛ فهم لا ينجون لأنهم أهله، ولكن لأنهم مؤمنون، شأنهم في ذلك شأن من آمن من قومه ذلكم قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وهكذا بمنتهى الوضوح ـ كيما يكون أهل الإيمان على بينة من أمرهم على تقلب الأجيال والعصور ـ يأتي الرد معلّلاً لا لَبْسَ فيه ولا احتمال: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

لقد كان الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيَّ الله نوحاً عليه السلام، وذلك متسق تمام الاتساق مع سنة الله في ارتباط الحكم على الإنسان بما يكون من إيمانه أو جحوده، وما يكون من استقامته على أمر الله أو مخالفته عنه.

ومن عجب أن الآية التي حملت هذا الإعلان على طريق التربية وبناء الإنسان المؤهل لحمل العبء، وضبط المعايير التي يقاس بها قدرُه ويحكم من خلالها عليه.. من عجب أنها جاءت مثقلة بالتأكيد الذي صحب النفي والإثبات ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

هذا في النفي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وهذا في الإثبات. ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وما كان أسرع نوحاً عليه السلام ـ وهو الرسول المبلغ عن الله ـ إلى الوقوف عند حدود الله، والرضا بأمره، ولو كان الغريقُ ولدَه وفلذةَ كبده! فرضا الله أولاً، وهو يرجو بعد ذلك مغفرة الله ورحمته، فهو الأعلم بما يصلح عباده وما فيه خيرهم في الدنيا ويوم الدين ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وأكرم الله نوحاً عليه السلام بهذه البشارة: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

إن حاجة الأمة اليوم ملحة إلى التبصُّر في هذه القضية التي تأخذ مكانها في قواعد المنهج الرباني، حيث تنزلت هذه الآيات على الفئة المؤمنة تزيدها وضوحاً في الرؤية وتضبط خطاها، وتحدد لها المعايير وهي تصارع الوثنية والعادات الجاهلية ورواسب التخلف.

والشَبَه من بعض الوجوه قائم ـ دونما ريب ـ بين اليوم والأمس، خصوصاً فيما يتعلق بالانضباط والمنهجية والمعافاة من التشرذم على طريق بناء الإنسان المسلم الذي يُراد له أن يتحمَّل مسؤولية التحوُّل وتبعات استئناف المسيرة الخيِّرة والاحتكام.

إلى القيم المنبعثة عن العقيدة ووضع معيار الإيمان والاستقامة موضعه اللائق على ساحة التطلعات المستقبلية وتنمية الموارد البشرية القادرة ــ بكفاياتها العلمية والتجريبية، وفكرها النيِّر المتميِّز ــ على حمل العبء والإفادة مما وضع الله لدى الأمة من طاقات وإمكانات، وتسييرها في قنواتها التي تؤول بها إلى أن تكون مورد قوة تعيد لهذه الأمة مكانها الطبيعي تحت الشمس إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر: فلا بد من إثبات حقيقة، يجدر إثباتها هنا، وإن كان المقام ليس مقام التفصيل فيها؛ وهي أن الله تبارك وتعالى ــ وهو أعدل العادلين المتفضل بالحب والإحسان ــ قد بشَّر أولئك الذين لا يحيدون عن الصراط السوي بطاعتهم وأخلاقهم، بشّرهم بالجنة التي وعد المتقون، وضم إلى ذلك بشارة أخرى بأنهم يدخلون جنات عدن ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب؛ فالذرية الصالحة التي تنتهج طريق الآباء الصالحين تنال ما ناله السابقون.

ذلك ما جاء في صفات أولي الألباب التي جاءت على ذكرها آيات كريمات من سورة الرعد وما يكرمون به من عقبى الدار جنات عدن والحمد لله. يقول الله جل ثناؤه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

إنه قانون إلهي كريم: من صلح من الآباء والأزواج والذرية يشاركون ذوي قرابتهم أولي الألباب الصالحين، بأن تكون لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها، ويتفضل الله عليهم بأن تقول لهم وهم يدخلون عليهم من كل باب الملائكة: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وهذا ـ في الواقع ـ متوائم كل التواؤم مع قوله تعالى لنوح عليه السلام في شأن ولده الذي حاد عن الصراط السوي: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ومع قوله جل وعز: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وسبحان من إليه يرجع الأمر كلُّه وهو الحكيم الخبير.

# البناء التربوي.. والحقيقة العلمية في قصة نوح عليه السلام

« ٤ »

الحصيلة التي صحبناها في صفحات قريبات لقصة نوح عليه السلام مع ولده، والطوفان وما رافق ذلك من نتائج: أكّدت وهي تُعرَض على المسلمين في العهد المكي، والإنسان مستهدف من رواسب الجاهلية. أكّدت مكان تلك الوقائع على ساحة المعايير والقيم التي مَرَدُّ الأمر إليها في تحديد المؤهلات الحقيقية التي ترشح الفرد للمشاركة في مسيرة البناء الخيِّرة، المسيرةِ التي تخطُّ معالمها عقيدة التوحيد، والتي كان الإنسان في المقدمة على سلم اهتماماتها، لما أنه هو المؤهَّل لأن يتفكر ويتدبر، وأن يعلم ويعمل، وأن يفيد تسخير الكون وخيراته، ويستخدم ذلك في بناء الحياة في إطار من التعامل السَّمح الموضوعي مع الكون والحياة.

من أجل هذا أفرد هو بخطاب التكليف.. وترى أنه ذكر مرتين في الآيات الخمْس الأُوَل التي تنزلت على رسول الله ﷺ في أول يوم خاطبه جبريل بالرسالة وحياً من الله عز وجل.

والآيات هي فواتح سورة العلق؛ ذلكم قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ ففي الآية الثانية ذُكِرَ الإنسان ضمن إشارة إلى الخلق، وما أكثر وأغزر الآفاق التي تحملها هذه الإشارة. وفي الآية الثالثة ذُكِرَ في بيان لأهمية العلم ومصدره الأول عن الله عز وجل: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

لقد حمل نوح عليه السلام إلى قومه الذين أرسل إليهم رسالة التوحيد، فما آمن معه ـ على طول الرحلة الزمنية ـ إلا قليل، حتى ولده النَّسبي ما استجاب لدعوة الإيمان ولا انصاع لكلمة الهدى وظلَّ معرضاً عن الحق وأتى يوم الابتلاء العملي،

فكان الطوفان، وقعدت بالولد جهالته، عن الانصياع لنصح والده النبي الذي دله على سبيل النجاة، فلم يركب معه في السفينة وكان مع الكافرين، وحال الموج العارم بينه وبين أبيه، فكان من المغرقين.

ها هما الآيتان الثانية والأربعون والثالثة والأربعون من سورة هود تكشفان عن موقف هذا الابن الجانح عن الصراط والعاقبة التي آل إليها؛ يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وسأل نوح ربه بأدب ورجاء، سؤالَ كشف عن مصير ولده، وذلك قوله تعالى في الآية الخامسة والأربعين: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فجاء الجواب الذي يجعل الأمر منوطاً بالإيمان والعمل؛ فكون هذا الإنسان المتمرد على الحق ولدَ نوح الصلبيَّ، لا يقتضي أنه من أهله ولذلك ينجو من الغرق!! وإذن فهو لا يدخل ضمن من وعد نوح عليه السلام بنجاتهم من الغرق.

وانظر إلى هذا الوضوح الذي لا يُغني غناءه شيء في منهج سلامة التصور على ساحة بناء الإنسان بناءً متكاملاً يُشعره بمسؤوليته، وأن نسبه لا يغني عنه من الله شيئاً إن لم يكن صادق الإيمان صالح العمل. وأكدت الكلمات الهاديات أن هذه حقيقة علمية على الرسول نوح أن يتمثلها فلا يسأل ربَّه ما ليس له به علم ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أجل: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فالأمر ليس عشوائياً ولكنه الحقيقة التي يغذوها العلم، علم الله المحيط بما يصلح عباده، وإلا فهو الجهل ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

فتلك مجموعة من الوقائع عزّزها وأعطاها مزيداً من الأهمية في تاريخ البناء عند الإنسان: أن القرآن الكريم كشف ـ وهي وقائع حصلت في تلك الحِقبة ـ عن أنها حقائق علمية من أنباء الغيب ما كان يعلمها محمد ﷺ ولا قومه قبل أن يوحى بها إليه ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾.

إن وضوح هذه الحقائق في عالم التصور: له انعكاساته الفاعلة في عالم الواقع والتطبيق.

وموعدنا كلمات قادمات تقفنا إن شاء الله على ما يحمل إدخال هذه الوقائع في حيِّز العلم، وما يعنيه الأمر بالصبر وأن العاقبة للمتقين.

# الوحي.. والحقيقة العلمية
# فاعلية هذه الحقيقة.. في بناء المسلم
# الفاعلية والتربية البناءة.. والبناء

الآية التاسعة والأربعون من سورة «هود» وهي قول الله جل ثناؤه خطاباً لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ هذه الآية الكريمة من تلك السورة المكية، هي التي خُتمت بها قصة نوح عليه السلام مع قومه وولده وما كان من أمر الطوفان وذيوله؛ حيث استأثرت هذه القضية ـ بوقائعها المتنوعة ـ بخمس وعشرين آيةً بُدئت بالآية الخامسة والعشرين.

والحديث فيما سلف من القول عن المكانة التي تأخذها ـ على صعيد التربية والإعداد وتحديد المفهومات ـ وقائع ما حصل لهذا الرسول الكريم مع أقرب الناس إليه نسباً، وما أعقب ذلك من أمور... هذا الحديث قادنا إلى هذه الآية التي تدخل هذه الوقائع في حيِّز العلم؛ وإدخالها في هذا الحيِّز يعني الكثير على ساحة المعتقد والثقافة جميعاً ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ....﴾.

يقول الله جل ذكره وتقدست حكمته لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ـ وهو يعمل على بناء الإنسان المسلم وإنشاء المجتمع المنضبط بضوابط الإسلام ـ: هذه القصة وأشباهها ـ بما فيها من وقائع ـ من أخبار الغيوب السابقة، نوحيها إليك ـ نعلمك بها وحياً منا إليك ـ على وجهها الحقيقي كما وقعت وجرت لأصحابها، كأنك شاهدها، وقد مرَّ عليها قرون وقرون.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ ينفي الله سبحانه وتعالى أن يكون عند محمد ﷺ أو عند قومه علم بها؛ لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يواجهها بالتكذيب: إنك تعلمتَها منه، بل أخبرك الله بها مطابقةً لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد بذلك كتب الأنبياء عليهم السلام.

هكذا تحمل الكلمة القرآنية إلى الرسول الأمي صلوات الله وسلامه عليه، وإلى أمته هذه الحقيقة بأسلوب واضح لا يحتمل أيَّ لبس، وهي حقيقة أن مضمونات قصة نوح عليه السلام مع قومه وولده ــ كما أوردها القرآن الكريم ــ في غير موطن، ومنها ما دار بين نوح وبين هذا الابن، والمصير الذي انتهى إليه مع الهالكين، وما كان من سؤال التبيُّن من هذا الرسول الكريم، وما تلقاه من ربه عز وجل جواباً عما أراد الكشف عنه وتبيّنه في شأن ابنه، وإعلاماً له بالقيم والمعايير التي يخضع لها تقويم الإنسان ــ صلاحاً أو فساداً ــ وتنبيهه على أن ما كان من حكم الله على الولد هو من العلم الذي نُبِّه نوح عليه السلام على أنه كذلك، ونهي عن أن يسأل ربَّه ما ليس له به علم، مع ضرورة الاتعاظ بذلك خشية أن يكون من الجاهلين.. ــ الأمر الذي تتضح من خلاله العلة في كون ابن نوح الصلبيِّ ليس من أهله ــ ثم ما كان من مسارعة هذا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الموقف الذي يليق بأدب النبوة والتسليم المطلق لله عز وجل والرضى عن طمأنينته بحكمه جلّ شأنه.. كل أولئك يدخل في نطاق الحقائق العلمية بلا ريب..

وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن الإخبار عنها كان من طريق الوحي الذي هو كلام رب العالمين ــ ومن أصدق من الله حديثاً ــ ولا يداخلها أدنى احتمال ــ مهما ضعف واشتد ضعفه ــ في إمكان أن لا تكون وقعت بكلياتها وجزئياتها التي أحاط بها الكتاب الكريم كلام الله تبارك وتعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا**﴾.

أما بعد أن تنزّل بها الوحي: فقد علمها النبي ﷺ وقومه المسلمون منهم وغير المسلمين.

كما أن القاعدة التي بني عليها ما كان من عاقبة ولد نوح في انتظامه مع الهلكى الغارقين، نتيجة إعراضه عن الحق، وعدم انصياعه لنصح والده الذي كان يتمنى له النجاة: كل أولئك من العلم ﴿**فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾.

وإذن: فالوحي ـ وهذا ما يجب أن يكون أقوى ركيزة من ركائز البناء الفكري الذي يجب أن يصاغ عليه العقل المسلم ـ هو أول مصدر يقيني من مصادر العلم؛ فقد يكون العلم من طريق الوحي ـ عند الحاجة إلى الخبر الصادق ـ وقد يكون من طريق الحواس.. وما يذكر من مصادر المعرفة هنا وهناك.. وقد يكون من طريق التجربة ـ وهو العلم التجريبي ـ وكل هذه الأنواع، مما دلّ عليه القرآن الكريم.

فبجانب ما نحن بصدده من تقرير أن الوحي هو المصدر الأول من مصادر العلم عندنا، نقرأ في سورة «الغاشية» ـ مثلاً ـ قول الله الحكيم الخبير: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وهذا النظر الذي يدعو إليه القرآن ويحض عليه في معرض الاستدلال على وجود الله بعظيم خلقه وحكمته في هذا الكون، وآياته في الآفاق.. إنما هو نظر الملاحظة والتجربة، والتدقيق العلمي بمقدماته ومراحله التي يخالطها العلماء ـ على تنوع تخصصاتهم ـ أجل: التدقيق الذي يوصل إلى النتيجة السليمة من طريق المقدمة السليمة، وسبحان من علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

وهل يتحقق هذا بدون علم؟.